

خطبة الجمعة - الخطبة ٢٠٢ : التوكل.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٩٩-٥-٢٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الخطبة الأولى:

الحمد لله نحده، ونسعى به ونسترشد به، ونحوذ به من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهدى الله فلا مضل له، ومن يضل فلن تجد له ولياً مرشدًا، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، إقراراً بربوبيته وإرغاماً لمن جحد به وكفر، وأشهد أن سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم رسول الله سيد الخلق والبشر، ما اتصلت عين بنظر، أو سمعت أذن بخبر، اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه وعلى ذريته ومن وآله ومن تبعه إلى يوم الدين. اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا، إنك أنت العليم الحكيم، اللهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا وزدنا علماً، وأرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلًا وارزقنا اجتنابه، واجعلنا من يستمعون القول فيتبعون أحسنه، وأدخلنا برحمتك في عبادك الصالحين.

حاجة الناس إلى التوكل على الله بعد الأخذ بالأسباب :

أيها الأخوة المؤمنون؛ حينما يكون المسلم في ظرف صعب، أو حينما تتملك قوى الشرّ و هي لا ترحم، و حينما يبدو المستقبل مظلماً، و حينما يظن المسلم أن الأمور تجري نحو أسوأ في كل النواحي، في مثل هذه الحالات تشتد الحاجة إلى التوكل، دائمًا و أبداً لا تنس أن تكون موحداً، و لا تنس أن الأمر كله بيد الله، لا تنس أنه إليه يرجع الأمر كله، و لا تنس أن الله عز وجل بيده مقاليد السموات والأرض، قال تعالى:

﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاوَاتِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾

[سورة الزخرف: ٨٤]

و قال تعالى:

﴿لَا يَعْرُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾

[سورة سباء: ٣]

و لا يقع شيء في الكون إلا بإرادته. هذه الآيات آيات التوحيد يحتاجها المسلم دائماً، يحتاجها المسلم كي لا تضعف معنوياته، و كي لا يظن بالله ظن السوء، و كي لا يقع في مطب خطير وقع فيه الغربيون؛ أن الله خلاق وليس فعالاً، أن الأمر بيد الإنسان، لكن الأمر بيد الله، و يد الله فوق أيديهم، و حينما يوضع المسلم مرّة ثانية في ظرف صعب، و حينما تبدو الأمور مظلمة، و حينما تتملك قوى الشر ناصية الأمور في العالم، و حينما لا ترحم المسلمين تشتد الحاجة إلى التوكل،

التوكل بعد أخذ الأسباب، و المؤمن الحق يأخذ بالأسباب، و كأنها كل شيء، ثم يتوكّل على الله و كأنها ليست بشيء.

آيات كريمة وردت في موضوع التوكل :

إليكم أيها الأخوة بعض الآيات الكريمة التي وردت في موضوع التوكل، قال تعالى:

﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾

[سورة المائد़ة: ٢٣]

أي عالمة إيمانكم أنكم تتوكّلون على الله بعد أن تأخذوا بكل الأسباب حتى لا ينسق الإنسان، و حتى لا يقع في السوداوية، و حتى لا يقع في اليأس، و حتى لا يقع في القنوط، قال تعالى:

﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾

[سورة المائد़ة: ٢٣]

و قال تعالى:

﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾

[سورة الطلاق: ٣]

أنت مع من؟ مع خالق السموات، مع القوي، مع الذي بيده كل شيء، قال تعالى:

﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحُقْقَمِ بَيِّنِ﴾

[سورة النمل: ٧٩]

و هذه الآية تفصيل شديد، قال تعالى:

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾

[سورة الأحزاب: ٣]

و قال تعالى:

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا﴾

[سورة الفرقان: ٥٨]

وإن الله سبحانه و تعالى كما أنه يحب الصادقين، ويحب المحسنين، ويحب التائبين، ويحب المنتظرِين، إنه يحب المتوكّلين، من هو المتوكّل؟ هو الذي وثق بالله، وحينما ثق بالله فأنت المنتصر، سيدنا عمر رضي الله عنه سأله أنساً يتكلّفون الناس: من أنت؟ قالوا: نحن المتوكّلون، قال: كذبتم، المتوكّل من ألقى حجّة في الأرض ثم توكل على الله، و قال تعالى:

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجَلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلَيْتُ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادُهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾

[سورة الأنفال: ٢]

إنما أدلة حصر .

من كان على الحق ثم توكل على الله فقد جمع الدين كله :

قال العلماء أيها الأخوة: الدين بمجموعه في هذين الأمرين؛ أن يكون العبد على الحق في أقواله، وفي أعماله، و في اعتقاده، وفي نيته، و أن يكون متوكلاً على الله عز وجل واثقاً به، أن يكون على الحق وأن يتوكّل على الله، قال تعالى:

﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾

[سورة النمل: ٧٩]

أي إذا كنتَ على الحق لا تخشى أحداً لأن الله معك، و إذا كان الله معك فمن عليك؟ من يستطيع أن يكون عليك إذا كان الله معك؟ قال تعالى:

﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾

[سورة النمل: ٧٩]

أيها الأخوة الكرام ؛ إذا كان العبد على الحق في قوله و في عمله و في اعتقاده وفي نيته ثم توكل على الله عز وجل واثقاً منه فقد جمع الدين كله، آفة هذا العبد عدم الهدایة وعدم التوكل، أو كلامهما، إيمانه ضعيف و توكله معدوم، توكله توأكل من دون أخذ بالأسباب.

أيها الأخوة الكرام، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا تهجد من الليل قال:

((اللَّهُمَّ رَبَّنَا لَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ قَيْمُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَلَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَلَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، أَنْتَ الْحَقُّ وَقَوْلُكَ الْحَقُّ وَوَعْدُكَ الْحَقُّ وَلِقَاؤُكَ الْحَقُّ وَالْجَنَّةُ حَقٌّ وَالنَّارُ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ حَقٌّ اللَّهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ وَبِكَ آمَنتُ وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْكَ خَاصَّتُ وَبِكَ حَاكَمْتُ فَاغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخْرَتُ وَأَسْرَرْتُ وَأَعْلَنْتُ وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنْيَ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ))

[البخاري عن ابن عباس]

وعن ابن عباس أنه قال:

((حَسِبْنَا اللَّهَ وَنَعْمَ الْوَكِيلُ قَالَهَا إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ حِينَ أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَقَالَهَا مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ قَالُوا إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَأَخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسِبْنَا اللَّهَ وَنَعْمَ الْوَكِيلُ))

[البخاري عن ابن عباس]

المواقف الصعبة ضرورية لفرز المؤمنين :

تجربة دقيقة جداً مر بها المؤمنون في الخندق، قال تعالى:

التوكل.

﴿إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظَنُّونَ
بِاللَّهِ الظُّنُونَا * هُنَالِكَ ابْنُتِي الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزاً شَدِيدًا﴾

[سورة الأحزاب: ١٠-١١]

و لعل هذا الزلزال الشديد حكمته البالغة فرز المؤمنين، و قال تعالى:

﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَنْهَا الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَيْرَ مِنَ الطَّيْبِ﴾

[سورة آل عمران: ١٧٩]

و قال تعالى في المنافقين:

﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُوْبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾

[سورة الأحزاب: ١٢]

هذا في القرآن، قال بعض من كان مع النبي عليه الصلاة و السلام: أيعذنا صاحبكم أن تفتح علينا بلاد قيصر و كسرى و أحذنا لا يأمن أن يقضي حاجته؟ أما الذين آمنوا، قال تعالى:

﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رَجُلٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا
بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾

[سورة الأحزاب: ٢٣]

هذه الزلزلة لفرز المؤمنين، ليعرف الإنسان إذا ما كان مؤمنا حقا، أو كان يدعى الإيمان، في مثل هذه المواقف الصعبة يفرز الناس.

الذين استعانته و عبادة :

أيها الأخوة الكرام ؛ عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقول:
((أَعُوذُ بِعِزْتِكَ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَالْجِنُّ وَالْإِنْسُ يَمُوتُونَ))

[البخاري عن ابن عباس]

وعن عمر بن الخطاب قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:
((لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَوَكَّلُونَ عَلَى اللَّهِ حَقَّ تَوْكِلَهُ لَرُزْقُكُمْ كَمَا يُرْزِقُ الطَّيْرُ تَغْدُو خَمَاصًا وَتَرْوِحُ بَطَانًا))

[الترمذى عن عمر بن الخطاب]

مرة ثانية ؛ خذ بكل الأسباب و كأنها كل شيء، ثم توكل على الله و كأنها ليست بشيء، هذا الموقف الكامل، إن لم تأخذ الأسباب فقد عصيت، و إن أخذت بها و اعتمدتها فقد أشركت، ينبغي أن تأخذ بها و أن توكل على الله، عنده تقطف ثمار الإيمان يانعة.

فعن أنس بن مالك قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:
((مَنْ قَالَ يَعْنِي إِذَا خَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ بِسْمِ اللَّهِ تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ يُقَالُ لَهُ
كُفْيَتْ وَوَقِيتْ وَتَنَحَّى عَنْهُ الشَّيْطَانُ))

[الترمذى عن أنس بن مالك]

أيها الأخوة الكرام، هل الدين في مجمله إلا استعانته و عبادته من آية الفاتحة؟ قال تعالى:

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾

]

[سورة الفاتحة: ٥]

فالتوكل هو الاستعانة، و الإنابة إلى الله هي العبادة.

أنواع المتكلمين على الله :

أيها الأخوة الكرام ؛ أنت في الدعاء، و التوكل يلتقي مع الدعاء في نقاطٍ كثيرة، أنت في الدعاء، مع أهل الأرض هل تطلب من إنسان لا وجود له؟ مستحيل، لا بد من الذي تدعوه أنك موقن أنه موجود، هل تدعوا إنساناً لا يسمع؟ مستحيل، لا بد من أن تدعوا إنساناً موجوداً و يسمعك، هل تدعوا إنساناً ضعيفاً؟ مستحيل، لا بد من أن تدعوا إنساناً موجوداً، و يسمعك، وهو قادر على تنفيذ رغباتك، في عالم الأرض، هل تدعوا إنساناً لا يحبك؟ مستحيل، لا بد من أن تدعوا إنساناً موجوداً، و يسمعك، و قادر على تنفيذ رغباتك، و يحبك، أنت حينما تدعوا الله، أنت مؤمنٌ و رب الكعبة، مؤمن بوجوده، و مؤمن بسمعه و علمه، و مؤمن بقدرته، و مؤمن برحمته، هذا هو التوكل، لكن هذا التوكل فيها الأخوة كما قال بعض العلماء: تتبادر متعلقاته، أولياء الله و خاصته يتوكّلون على الله في الإيمان، في نصرة دينه، و في إعلاء كلمته، و في قهر أعدائه، و في تنفيذ أوامره، قضيّتهم مع الله إرساء الحق، قضيّتهم مع الله أن يزول الباطل، قضيّتهم مع الله أن تنتشر الفضيلة، أن تسع الأمة، ميولهم علوية، خرجوا من ذاتهم إلى خدمة الخلق، وإلى إسعاد الخلق، و إلى هداية الخلق، فأولياء الله و خاصته يتوكّلون عليه في نصرة دينه، و إعلاء كلمته، و جهاد أعدائه، وفي تنفيذ أوامره، لذلك المؤمن الحق يحمل هموم المسلمين، انتقامه ليس فردياً، انتقامه إلى مجموع المؤمنين، يتمنى لهم الخير، يتمنى أن يهتدوا إلى الله، يتمنى أن يقيموا أمر الله في بيوتهم و أعمالهم، يتمنى لهم أن يسعدوا بالله، فإذا دعا الله و توكل عليه ففي قضية عامة، هؤلاء أولياء الله و خاصته، و من دون هؤلاء يتوكّلون على الله في استقامتهم، وفي حفظ أحوالهم مع الله، يا رب ثبتي على ما أنا عليه، أي أن انتقامه فردي، ولكنه مقدس، يتوكّلون على الله في سلامته عقيدتهم، و في سلامته سلوكهم، وفي سلامته استقامتهم، وفي الأعمال الصالحة التي ينبغي أن تجري على أيديهم، و من دون هؤلاء هناك من يتوكّل على الله في شيءٍ يبتغيه من رزق، أو عافية، أو زوجة، أو نصر على عدوٍ في موضوع دنيوي، أو زوجة أو ولد أو نحو ذلك، على كلٍّ هؤلاء جميعاً على العين و الرأس، هم متوكّلون.

أفضل أنواع التوكل :

أيها الأخوة الكرام ؛ قال العلماء: إن أفضل أنواع التوكل في واجب الحق وواجب الخلق، الحق وهو الله جل جلاله له عليك حقوق، وعليك له واجبات، فأفضل أنواع التوكل أن تتوكل فيما

الله عليك، و فيما للخلق عليك، و فيما لنفسك عليك من حقٍّ، و أوسع أنواع التوكلِ التوكلُ في مصلحة دينية، أو في دفع مفسدة دينية، وهو توكلُ الأنبياء في إقامة دين الله عز وجل، و دفع فساد المفسدين، و هذا توكلُ ورثتهم من بعدهم، العلماء الصادقون الذين ورثوا هذه المهمة عن الأنبياء، في إحقاق الحق وإبطال الباطل، وفي تبیین الحق ولو كان مرأً، و يتوكّل الناسُ بعد ذلك على حسب هممهم، و مقاصدهم، فمن متوكّل على الله في الوصول إلى الملك، و من متوكّل على الله في الحصول على رغيف خبز.

أيها الأخوة الكرام ؛ قيل: من صدق في توكله على الله في حصول شيء ناله، فإن كان محبوبًا مرضياً عند الله كانت له فيه العافية و العاقبة المحمودة المرضية، و إن توكل على الله في شيء مسخوطٍ مبغوض عند الله كان ما حصل له بتوكّله مضرّة عليه، و إن كان مباحاً حصلت له مصلحة التوكل دون مصلحة ما توكل فيه، إلا إذا استعان به على طاعة الله، إذاً أنت إن توكلت على الله فيما يحب الله، فقد جمعت بين الدنيا و الآخرة، و إن توكلت عليه فيما يبغض فقد نلتَ الدنيا و خسرت الآخرة، أما إذا توكلت عليه في مباح لا لك و لا عليك، إلا في حالة واحدة إذا استعنَتْ به على طاعة الله أصبح لك ثانيةً.

ثمار التوكل :

أيها الأخوة الكرام ؛ أولى ثمار التوكلُ الإيمان، أنت مع القويِّ، أنت مع الغنيِّ، أنت مع العليم، أنت مع من بيده ملکوتُ كُلِّ شيء، قال تعالى:

﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾

[سورة النمل: ٧٩]

ولكن لا تستطيع التوكل إلا إذا كنتَ على حقٍّ، لأن المعصية و المخالفة حجابٌ بينك و بين الله، الإمام أحمد رحمه الله تعالى يقول: " التوكل من عمل القلب " و معنى ذلك أنه عمل قلبيًّا محضًّا، لا علاقة للسان و للجوارح به و لا هو من باب العلوم و الإدراكات، التوكل محله القلب فقط، أي أنت متوكّل على الله لكن في الظاهر تأخذ بكل شيء، كما فعل النبيُّ في الهجرة، كلف إنساناً يمحو الآثار، و إنساناً يأتيه بالأخبار، و استأجر دليلاً مشركاً فضل الخبرة على الولاء، سار مساحلاً، و اختبأ في غار ثور، ما من قضية إلا و أغلقها، ما من احتمال إلا و أغلقه، هذا هو التوكل، و بعده توكل على الله، فلما وصلوا إلى الغار، قال: يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟ علامة صدق توكله على الله أنه لم يعبأ بالنتائج، أديتُ الذي علىي و انتهى الأمرُ، و كلُّ مسلم هذا درسٌ بلغ له، في تجارتك، وفي طببك، وفي هندستك، وفي تعليمك، وفي صناعتك، وفي حرفةك، يجب أن تأخذ بكل الأسباب، تكون قد أديتَ الذي عليك، أطعْتَ الله في الأخذ بالأسباب، و بعده توكل على الله.

يا أيها الأخوة الكرام ؛ هناك من يجعل التوكل في باب المعرفة و العلوم يجعله علماً، فيقول: هو علم القلب بكفاية الرب للعبد، و بعضهم يفسره بالسكون، أي انطراح القلب بين يدي الرب، و ترك الاختيار والاسترسال في مجرى الأقدار، الاسترسال مع الله فيما يريد، و الرضا بالمقدور، و هجر العلائق، ومواصلة الحقائق، التوكل أعقد من ذلك، و أعظم من ذلك، التوكل من عمل القلب.

الأمور التي تسهم في سلامه التوكل :

أيها الأخوة الكرام ؛ التوكل حالٌ مركبة من مجموعة أمور لا تتم حقيقة التوكل إلا بها، و كل هذه التعاريف إشارة إلى واحدة منها، فالتوكل حالة معقدة، يسهم في سلامتها و صحتها أمور عدّة:

الشيء الأول في التوكل أن تعرف الله، أن تعرفه موجوداً، قويًا، فعالاً، وسميعاً، وبصيراً، وعادلاً، ورحيمًا، أن تعرف أسماءه الحسنى، وأن تعرف صفاته الفضلى، من قدرة و كفالية، وانتهاء الأمور إليه، إلى علمه، وصدورها عن مشيئته، و قدرته، هذه المعرفة شرط أساسى في التوكل، أي أنت حينما تذهب إلى دائرة، و قضيتك لا يحلها إلا المدير العام، لا يمكن أن تترجّى حاجباً لحل هذه المشكلة، و إلا فأنت لست عاقلاً، فلا يمكن أن تتوكل على الله إلا إذا عرفت قدرته، إلا إذا عرفت أسماءه الحسنى وصفاته الفضلى، لذلك لا يصح التوكل من فيلسوف، لأنه لا يعرف الله، والناس حينما لا يتوكّلون، لا أقول: معهم الحق، و لكن لأنهم لا يعرفون الله لا يتوكّلون عليه، في حياتهم، في ساحة نفوسهم قوى أرضية فقط، يخشى هذا و يخشى هذا، و يرجو أن يذهب عنه سخط هذا، لا يرى رضا الله فوق أيديهم، لا يرى أن الله فعل، لا يرى أن كل شيء في الكون لا يقع إلا بأمره و مشيئته، يرى أن الله خلاق و ليس فعالاً، لا يتوكّل عليه، الإنسان بفطرته يبحث عن الرجل القوي في كل أمر من الأمور، في أي مكان هناك رجل قوي، ورجل غير قوي، أنت ترجو القوي، ولا ترجو الضعيف، تتوجه إلى القوي، ولا تتوجه إلى الضعيف، فكيف يتوجه إلى الله و يتوكّل عليه من لا يعرفه؟ هو يرى زيداً و عبيداً و فلاناً و علاناً، هو مأخوذ بالقوى الأرضية، و لا يهتم بقوى السماء، يهتم بالأرض و لا يهتم بخالق الأكون.

معرفة الله الشرط الأول الكبير للتوكّل :

فيما أيها الأخوة الكرام ؛ الشرط الأول الكبير للتوكّل أن تعرف الله، فإذا عرفته توكلت عليه، لذلك قوله تعالى:

﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾

[سورة المائدة: ٢٣]

إن كنتم مؤمنين فتوكلوا على الله، و كيف يتوكل على الله من يتوهّم أن الله لا يعلم جزئيات العالم؟ الله خالق عظيم، ما علاقته بحياتنا اليومية؟ و بقضاياها الاجتماعية؟ و بقضاياها الاقتصادية؟ بالأمطار و الآبار و الينابيع و النبات؟ هو يتوهّم أن الله خلق الكون و انتهى الأمر، هذا الإنسان الذي يتوهّم أن الله لا يعلم الجزئيات، لا يتوكل عليه، دقيق في قوله تعالى:

﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرْقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَأْسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾

[سورة الأنعام: ٥٩]

هل هناك حدث أقل من هذا الحدث؟ تمشي في الطريق هناك بستان في الخريف يسقط ورقه، قال تعالى:

﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرْقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَأْسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾

[سورة الأنعام: ٥٩]

إن أيقنتَ أن الله يعلم الجزئيات تتوكل عليه في كل شيء، لذلك فعن أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((إِسْأَلُوا أَحَدَكُمْ رَبَّهُ حَاجَتَهُ كُلُّهَا حَتَّى يَسْأَلَ شَسْعَ نَعْلِهِ إِذَا انْقَطَعَ))

[الترمذى عن أنس بن مالك]

يحب أن تسأله ملح طعامك، و يحب أن تسأله حاجتك كلها هذا هو التوكل. ذكرت لكم أيها الأخوة أن هناك إخوة يعملون في الطب مؤمنين، قبل أن يجرروا أي عملية يصلون ركعتين لله عز وجل، و يفتقرن إليه ليوافقهم في نجاح العملية، هذا توكل، قبل أن نفعل شيئاً لا ننس أن الله معك، فأنت الأول، لا تتتسوا أيها الأخوة أنك في أي لحظة إذا قلت: أنا، أوكلت الله إلى نفسي، والصحابة الكرام و معهم سيد الأنام قالوا: لن نغلب من قلة، فأوكلهم الله إلى أنفسهم، قال تعالى:

﴿وَيَوْمَ حُسْنٍ إِذَا أَعْجَبْتُمْ كَثُرَتُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحَبْتُمْ ثُمَّ وَلَيْتُمْ مُذْبِرِينَ﴾

[سورة التوبه: ٢٥]

و يوم بدر قال تعالى:

﴿وَلَقَدْ نَصَرْتُكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذْلَلُهُ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾

[سورة آل عمران: ١٢٣]

اذكر مقدمة هذه الخطبة مرّة ثانية، حينما تشتد الأمور و حينما يرى المسلم قوى الشر في العالم مسيطرة و لا ترحم، تريد أن تعيش على أنقاض الشعوب، أن تبني مجدها على أنقاض الشعوب،

أن تبني رفاه شعبها على شقاء الشعوب، بينما يتوهم الإنسان أن قوى الشر في العالم الغربي مسيطرة يجب أن يأخذ بالأسباب وأن يتوكّل على الله عز وجل فهو حسبه.

التوكل و الدعاء و الاستعاة أسباب لحصول الإنسان على مراده :

أيها الأخوة الكرام ؛ كل من كان له علم بالله و بأسمائه الحسنى وصفاته الفضلى، كل من كان علمه بهذه أشدّ كان توكله أعظم، أي توكلك يتناسب و معرفتك بالله، الإنسان يملك الوف و الوف الملايين و أنت بحاجة إلى مئة ليرة، ما دمت تعلم أنه يملك هذا المبلغ الضخم، وأنه يحبك، وأنه ينضر أن تسأله، عنده لا تتردد لحظة في سؤاله وفي الطلب منه و الدعاء له.

أيها الأخوة الكرام ؛ التوكل من أقوى الأسباب في حصول المُتوكّل على ما يريد، فالدعاء سببٌ في حصول المراد، و الشّيْع يحتاج إلى أن تأكل، والجَبَّ يحتاج إلى أن تزرعه، نظام الكون نظام سببية، فالله عز وجل جعل حاجتك منوطـة بدعائك و توكلـك، فالدعاء سبب و التوكل سبب، سبب عند الله كافٍ، كيف أنك تأكل فتشبع، و تشرب فترتوي، تلقـي حـة في الأرض فتنبت، ترکـب الطائرة فتدـهـب إلى الحـجـ، تحـفـر الأرضـ فـيـخـرـجـ المـاءـ، نظام السـبـبـيةـ، و الله جـلتـ حـكـمـتـهـ جـعلـ التـوـكـلـ سـبـبـاـ لـحـصـولـ مـرـادـكـ، وـ هوـ سـبـبـ عندـ اللهـ مـقـبـولـ وـ كـافـ، التـوـكـلـ وـ الدـعـاءـ وـ الـاسـعـانـةـ، لذلك قالـ العـلـمـاءـ: ماـ اـمـرـكـ أـنـ تـدـعـوهـ إـلاـ لـيـجـبـيكـ، وـ ماـ اـمـرـكـ أـنـ تـسـعـينـ بـهـ إـلاـ لـيـعـينـكـ، وـ ماـ اـمـرـكـ أـنـ تـنـوـكـلـ عـلـيـهـ إـلاـ لـيـنـبـيـكـ، قالـ تـعـالـىـ:

فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ

[٧٩] سورة النمل:

أيها الأخوة ؛ هناك مقوله سخيفة، سخيفة جداً، يقول: إذا قضى الله لي في سابق علمه أن يحصل لي هذا الشيء سيحصل لي، فعلت أو لم أفعل، وإذا قدر لي في سابق علمه أن يحرمني هذا الشيء، أنا محروم منه، فعلت أو لم أفعل، إذا ينبغي ألا أفعل شيئاً، هذا فهم سقيم، فهم ما أراده الله عز وجل.

أيتها الأخوة ؛ هكذا قال بعضُ العلماء: البهائمُ أفقه من هذا الإنسان، لأنها تسعى في السبب إلى طعامها و شرابها و مصالحها، بالهدایة العامة، فالبهيمة أحياناً تسعى إلى طعامها و شرابها بحسبها العام، بهدایة الله العامة لها، هذا الذي يقعد عن الأخذ بالأسباب أقلُّ من البهيمة، أقلُّ فقهًا من

البهيمة، لذلك ورد في الحديث النبوي الشريف عن عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّهُ حَدَّثَهُمْ: ((أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَضَى بَيْنَ رَجُلَيْنِ فَقَالَ الْمُقْضِيُّ عَلَيْهِ لِمَا أَدْبَرَ حَسْبِيَ اللَّهُ وَتَعَمَّلَ الْوَكِيلُ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّ اللَّهَ يَلْوُمُ عَلَى الْعَجْزِ وَلَكِنْ عَلَيْكَ بِالْكِيسِ فَإِذَا خَلَكَ أَمْرٌ فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ وَتَعَمَّلَ الْوَكِيلُ))

أبو داود عن عوف بن مالك

لا تقل: حسبي الله ونعم الوكيل إلا بعد أن تأخذ بالأسباب، وبعد إن لم يتحقق لك شيء، إذاً هذه مشيئة الله.

عدم تناقض الأخذ بالأسباب مع التوكل على الله :

أيها الأخوة الكرام ؛ التوكل من أعظم الأسباب التي يحصل بها المطلوب، ويُدفع بها المكره، ولكن من تمام التوكل عدم الركون إلى الأسباب إن أخذت بها، و النبى عليه الصلاة والسلام أخذ بالأسباب، وتوكل على الله، لم يحضر الصفة الأولى في المعركة إلا بسلاح و درع، استأجر دليلاً مشركاً، كان يدّخر القوت لأهله، وهو سيد المتوكّلين، كان إذا سافر حمل الزاد، لا يتناقض الأخذ بالأسباب مع التوكل أبداً، بل إن الأخذ بالأسباب من أسباب التوكل.

السکينة أعظم ثمرة لمن توكل على الله :

أيها الأخوة الكرام ؛ حينما تلجأ إلى الله، وتتوكل عليه نقطف أعظم ثمرة في الإيمان، وهي السکينة، إن الله يعطي الصحة والمال والجمال للكثيرين من خلقه، ولكنه يعطي السکينة بقدر لأصحابه المؤمنين، هذه السکينة هي أول ثمرة من ثمار التوكل، في قلب المسلم السکينة لو وزّعت على أهل بلد لكافتهم، مطمئن إلى رحمة الله، مطمئن إلى المستقبل، قال تعالى:

﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلِيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾

[سورة التوبه: ٥١]

لنا و ليس علينا، لنا:

﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلِيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾

[سورة التوبه: ٥١]

مطمئن إلى رحمة الله، إلى عدل الله، مطمئن إلى أن الزمان لصالح المؤمن، خط المؤن البياني صاعد صعوداً مستمراً، حتى الموت نقطة على هذا الخط الصاعد و يبقى صاعداً، قال تعالى:

﴿قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ * بِمَا غَرِبَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾

[سورة يس: ٢٦-٢٧]

هذا الشيء دقيق جداً، خط المؤمن البياني صاعد صعوداً مستمراً، و ما الموت إلا نقطة على هذا الخط الصاعد باستمرار، بينما أهل الدنيا لعل خطهم البياني صاعد صعوداً حاداً، و لكن السقوط مريع، المؤمن خطه البياني صاعد صعوداً مستمراً إلى أبد الآبدين، قال تعالى:

﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلِيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾

[سورة التوبه: ٥١]

والخط البياني لغير المؤمنين صاعد صعوداً حاداً، ثم يسقط سقوطاً مريعاً، هذا يسميه الناس سقوط من على، اعتماد القلب على الله لا يُبقي فيه اضطراباً .

من كان مع الله كان الله معه :

بالمناسبة كلما تقدم علم الطبيززاد هذا العلم يقيناً أن الشدة النفسية وراء كل الأمراض، والشدة النفسية أساسها الخوف والقلق والشرك، لذلك قال تعالى:

﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَيْهَا أَخْرَى فَتَكُونُونَ مِنَ الْمُعْذَبِينَ﴾

[سورة الشعراء: ٢١٣]

بعض الأمثلة التي توضح ذلك؛ إنسان أقبل عليه عدوًّا عظيمًا، لا قبل له به، ولا طاقة له به، فرأى حسناً حسيناً مفتوحاً أدخله صاحبه إليه، وأغلق الباب، وفيه نوافذ، هو ينظر إلى عدوه ولكن مطمئن، يشاهد عدوه بجبروته وبطشه وظلمه، أما هو ففي حصن حسين، لا إلا الله حصن من دخلها أمن من عذابه، قال تعالى:

﴿فَكَيْدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ * إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَآبَةٍ إِلَّا هُوَ أَخْذُ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾

[سورة هود: ٥٥-٥٦]

الدوايَّ التي يخشاها الناس، الله عز وجل أخذ بناصيتها جميعاً، علاقتك مع الله إن أرخي الحبل وصلت إليك، وإن شدَّ الحبل أبقاها بعيدةً عنك، وعلاقتك مع من يملكها لا مع الدواب، قال تعالى:

﴿مَا مِنْ دَآبَةٍ إِلَّا هُوَ أَخْذُ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾

[سورة هود: ٥٦]

العلماء قالوا أيضاً: المتكَل كالطفل على ثدي أمّه، لا يهمه شيء، لا يعرف غير أمّه، وراحته مع أمّه، وسعادته مع أمّه، وطمأنينته مع أمّه، شبعه مع أمّه، ربيه مع أمّه، سروره مع أمّه، فإذا ترك يدها نبحث عليه الكلاب لتعيده إلى أمّه، وهذه القصة بأكملها في العالم كله لتعيده إلى أمّه، فكن مع الله عز وجل، كن مع الله ترَ الله معك.

حسن الظن بالله من لوازم التوكل :

أيها الأخوة الكرام، بقيت نقطة أخيرة، حسن الظن بالله من لوازم التوكل، يجب أن تعلم أن الله خلقك ليسعدك، وهو يحبك، وينتظر أن تتوب إليه، وهو أفرح بتوبتك من الضال الواجد، والعقيم الوالد، والظمان الوارد، قال تعالى:

﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْتُلُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾

[سورة الزمر: ٥٣]

أيها الأخوة الكرام؛ هذا هو الحق المبين قال تعالى:

﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾

[سورة النمل: ٧٩]

يا أيها الأخوة الكرام ؛ حاسبو أنفسكم قبل أن تحاسبوا، و زنوا أعمالكم قبل أن تُوزن عليكم، و اعلموا أن ملَك الموت قد تخطانا إلى غيرنا، و سيتخطى غيرنا إلينا فلتتَّخذ حذرنا، و الكيس من دان نفسه، و عمل لما بعد الموت، و العاجز من أتبع نفسه هواه، و تمنى على الله الأماني، و الحمد لله رب العالمين.

* * *

الخطبة الثانية :

أشهد أن لا إله إلا الله ولِي الصالحين، وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله، صاحب الخلق العظيم، اللهم صلّ وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

حجم الإنسان عند الله بحجم عمله الصالح :

أيها الأخوة الكرام؛ عندكم اليوم صندوق العافية، و لا تنسَ أن حجمك عند الله بحجم عملك الصالح، قال تعالى:

﴿وَكُلِّ درَجَاتٍ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُوْقِيَّهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾

[سورة الأحقاف: ١٩]

أسأل الله لي و لكم الهدية و التوفيق.

الدعاء :

اللهم اهدا فينا هديت، و عافنا فيمن عافيت، و تولنا فيمن توليت، و بارك لنا فيما أعطيت، و قينا و اصرف عنا شرّ ما قضيت، فإنك تقضي بالحق و لا يقضى عليك، وإنه لا يذلُّ من واليت، و لا يعز من عاديت، تبارك ربنا و تعاليت، و لك الحمد على ما قضيت، نستغرك و نتوب إليك، اللهم هب لنا عملاً صالحًا يقربنا إليك، اللهم أعطنا و لا تحربنا، أكرمنا و لا تهنا، آثرنا و لا تؤثر علينا، أرضنا و أرضنا، أصلح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا، و أصلح لنا دنيانا التي فيها معاشنا، و أصلح لنا آخرتنا التي إليها مردنا، واجعل الحياة زادنا من كل خير، و اجعل الموت راحة لنا من كل شرّ، مولانا رب العالمين، اللهم اكفنا بحلالك عن حرامك، وبطاعتك عن معصيتك، وبفضلك عن سوالك، اللهم لا تؤمنا مكرك، ولا تهتك عنا سترك، و لا تنسينا ذكرك يا رب العالمين، اللهم إنا نعوذ بك من الخوف إلا منك، ومن الفقر إلا إليك، ومن الذل إلا لك، نعوذ بك من عُضال الداء، ومن شماتة الأعداء، ومن السُّلب بعد العطاء، مولانا رب العالمين، اللهم بفضلك ورحمتك أعلِّ كلمة الحق والدين، وانصر الإسلام، وأعز المسلمين، وخذ بيد ولاتهم إلى ما تحب وترضى، إنك على ما تشاء قادر، و بالإجابة جدير .

والحمد لله رب العالمين